جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

أقبَاسٌ من البلاغةِ النبويّةِ
في حديث
"سَبْعةٌ يُظلُّهم اللّهُ في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه"

إعداد

د/ محمد محمود يوسف البهلول

قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، جامعة الأزهر

(العدد السابع والثلاثون)

(الإصدار الثاني .. مايو)

(١٤٤٥هـ - ٢٠٢٤م)

علمية - محكمة - ربع سنوية

الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

أقبَاسٌ من البلاغةِ النبويّةِ في حديث "سَبْعةٌ يُظلُّهم اللهُ في ظِلِّه يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه"

محمد محمود يوسف البهلول

قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، جامعة الأزهر، مصر.

البريد الإلكتروني: malbhlwl1@azhar.edu.eg

الملخص:

فكرة البحث دارت حول إظهار ملامح البلاغة النبوية، وإبراز سماتها من خلال حديث :" سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: اِمَامُ عَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بصدقة، أَخْفَاها حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ " وقد تبين من خلال تلك الدراسة أن البلاغة النبوية بلغة ذراها، وجاوزت منتهاها، في الكشف عن المقصود، وبيان المنشود، وإظهار المراد، بأوجز عبارة، وأجمل إشارة، وأفصح تعبير، وأسلس تركيب، وأبلغ كلام، وأجمل نظام، راعى به المقام، فخالط القلوب، وأثار النفوس، وحرك العقول، للاتصاف بتلك الصفات المذكورة، من إقامة العدل، والنشأ في طاعة الله، والتعلق بالمساجد، والتحابّ في الله، والتدثّر برداء العفة حين تعرض الفتن، والتغلب على شح النفس ببذل الصفات، والذكر الخالص المنبعث من القلوب، فتفيض معه العيون بكاء، ومن اتصف بواحدة من تلك الصفات كان أهلا لأن يستظل بظل الله عز وجل يوم القيامة.

الكلمات المفتاحية: أقباس، البلاغة النبوية، الحديث النبوي، سبعة يظلهم الله في ظله، الإيجاز.

A source of prophetic eloquence in the hadith: “There are seven whom God will shade under His shade on the Day when there will be no shade but His shade”.

Muhammad Mahmoud Youssef Al-Bahloul
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Arabic Language, Itay al-Baroud, Al-Azhar University, Egypt.
Email: malbhlwl1@azhar.edu.eg.

Abstract:
The idea of the research revolved around showing the features of prophetic eloquence, and highlighting its characteristics through the hadith: “There are seven whom God will shade under His shade, on the Day when there will be no shade but His shade: a just imam, a young man who grew up in the worship of his Lord, and a man His heart is hung in the mosques, and two men loved each other for the sake of God. They gathered to meet him and separated to meet him, and a man was asked by a woman of position and beauty, and he said: I fear God, and a man gave charity, and he hid it so that she would not know “His left hand is what his right hand can reach, and a man mentions God alone, and his eyes overflow.” It has become clear through this study that prophetic eloquence is in the language of its height, It has exceeded its limit, in revealing what is meant, clarifying what is sought, and making what is meant, with the briefest expression, the most beautiful indication, the most eloquent expression, the smoothest composition, the most eloquent speech, and the most beautiful system, with which it took care of the station, mixed hearts, stirred souls, and moved minds, to possess those qualities mentioned. From establishing justice, growing up in obedience to God, attachment to mosques, love for the sake of God, covering oneself with a garment of chastity when temptations are exposed, overcoming greediness of the soul by bestowing qualities, and pure remembrance emanating from the hearts, causing eyes to overflow with tears, and whoever is characterized by one of these qualities is worthy of being blessed. He will be protected by the shadow of God Almighty on the Day of Resurrection.

Keywords: A source, Prophetic eloquence, Prophetic hadith, Seven whom God shades under His shadow, Brevity.

قال النبي صلى الله عليه وسلم :" سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامُ عَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَة، أَخْفَاها حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ "[1]

١ – الحديث متفق عليه، في صحيح البخاري، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة برقم ٦٦٠، ١/١٣٣، وصحيح مسلم، باب فضل إخفاء الصدقة برقم ٩١، ٢/٧١٥.

مقدمة البحث

الحمد لله حمدا يليق بجلاله وكماله، والصلاة والسلام على النبي وآله .

وبعد

فإن دراسة البيان النبوي تعدُّ من الدراسات الشائقة الرائقة التي يجد فيه الدارس لذة عجيبة، تتخلل مسارب نفسه، وتخالط منافذ حسه، فيتذوق طعمها تذوقا يجعله يستيقن بأن البيان النبوي من النمط الغريب، والطراز العجيب، يرتقي ارتقاء لا حدّ له عن غيره من البشر.

وهذا أمر حق لا يعروه شيء من المبالغات والادعاءات، فالذي يطالع كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، يجد فيه بهاء من انوار النبوة يأخذ بمجامع قلبه، ويمتلك أقطار نفسه امتلاكا لا يجد عشر معشاره في كلام آخر.

يجد فيه من خصائص البلاغة العالية ما لا يجده في كلام الشعراء والأدباء، يرى كلاما مسبوكا، وتعبيرا محبوكا، أملاه إيجاز محكم، ومع هذا الإيجاز الشديد تجد المعاني مبسوطة، يعجز عن إظهارها الكلام الطويل، والعبارات الفضفاضة في كلام غيره.

يجد انسيابية في التعبير، وسهولة في العبارة، وسلاسة في الأسلوب، ودماثة في التركيب، وجمالا في التصوير، بعيدا عن التكلف، بريئا من الصنعة، ولا غرو فقد نفي الله عز وجل عنه التكلف، " وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) ص

طبّق بحسن منطقه الصواب، فاتسم بالحكمة وفصل الخطاب، ببيان شدَه به أولي الألباب، وكان الجاحظ– رحمه الله– موفقا ومسدّدا، حين قال في وصف كلامه صلى الله عليه وسلم:

" وهو الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصنعة، ونزّه عن التكلف، ... فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق. وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الأفهام، وقلة

عدد الكلام..."[1]" إلى آخر تلك الأوصاف التي لا يسردها إلا رجل ذو ذائقة بيانية عالية مثل الجاحظ،

وكان الرافعي من الطبانة والفطانة، والزكانة واللقانة، حين كشف عن فصاحة النبي صلى الله عليه وسلم، وبين أسبابها ومظاهرها، وكشف عن صفته، وإحكام منطقه، واستيفاء معاني كلامه، حتى لا يتوهم متوهم أن الجاحظ بالغ في وصفه مبالغة، حداه إليها مقام النبوة، بل إن الجاحظ نفسه دفع هذا الوهم بقوله:

" ولعل بعض من يتسع في العلم، ولم يعرف مقادير الكلم، يظن أنّا قد تكلفنا له من الامتداح والتشريف ومن التزيين والتجويد ما ليس عنده، ولا يبلغه قدره. كلا والذي حرم التزيد على العلماء، وقبح التكلف عند الحكماء، وبهرج الكذابين عند الفقهاء، لا يظن هذا إلا من ضل سعيه..."[2]"

ولا يشك أهل البصر والبصيرة في أن ما قاله الجاحظ لا يقف على شعوب البلاغة النبوية كلها، ولم يحصر مبادئها ومنتهاها، ولم يقف عند حدود مبانيها ومعانيها، وحلاوة مقاطعها، بل إن كلامه صلى الله عليه وسلم فيه ما ذكره الجاحظ وزيادة، فن الصعوبة أن يأتي على بلاغته وصف الواصفين، أو أن يحيط بسمو بيانه دراسة الدارسين، ولا غرو فهو المصدر الثاني للتشريع، وهو لا ينطق إلا عن وحي، فكيف يقف العقل على حدود من علمه ربه وزكاه بقوله: " وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) النساء.

والذي يطيل رشاءه في عيون بيانه، يستيقن بأن اللغة أسفرت له عن حقائقها، وكشفت له عن دقائقها، فانتخب منها العذب المستطاب، واصطفى منها خالص اللباب، فصاغه من صفاء نفسه، ورهافة حسه، صياغة فريدة، جاشت

١ – البيان والتبيين ١٣/٢ دار ومكتبة الهلال، بيروت: ١٤٢٣.

٢ – السابق ١٤/٢.

بمعان سديدة، وفاضت بأفكار رشيدة، تهدي العباد، وتصلح البلاد، ويستقيم بها أمر البشرية، ويستقر بها أمر البرية.

ولله در الرافعي حين قال: " كأنما تكاشفه أوضاع اللغة بأسرارها، وتبادره بحقائقها"[١]"

حقيقة كنت أستشعر هذا الجلال، وأحس بهذا الجمال وأنا أطالع كلامه صلى الله عليه وسلم، فكانت نفسي تتوق إلى تدبر هذا البيان الرائع، والإعجاز الناصع، كي تجلي أسراره، وتظهر أنواره، لكن كانت تجذبني بحوث أخرى فرضت نفسها، وهي بحوث تتعلق بالبلاغة القرآنية، وبحوث أخرى تكشف عن الذوق البلاغي عند بعض المفسرين، وأخرى تتعلق بالشعر العربي ونقده.

وشاء الله عز وجل أن يهيئ من الأسباب، ما يجعلني أعيد النظر في كلامه صلى الله عليه سلم، وكان من الأحاديث التي أخذتني، الحديث المتفق عليه، في قول النبي صلى الله عليه وسلم :" سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامُ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ، أَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ "[٢]"

أخذني هذا الحديث بجمال مبناه، وشدهني بجلال معناه، جمال المبنى الذي يأسر عقول العلماء من أرباب اللغة البيان، وجلال المعنى الذي يغري النفوس، ويبعث الهمم، ويثير الأفئدة، ويطمعها في هذا الظل الظليل، والنعيم البليل، الذي يشمل الله به عبادة يوم التناد، فيجعل الإنسان يأخذ بالأسباب،

١ – إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٢٨٣ دار الكتاب العربي١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

٢ – الحديث في فتح الباري شرح صحيح البخاري رقم الحديث ٦٦٠ باب الصلاة وشرح النووي على صحيح مسلم باب الصدقة رقم ١٠٣١.

ليكون أهلا من بين هؤلاء السبعة الذين يستظلون بظل الله في عرصات يوم القيامة.

هذا وغيره دفعني إلى الكشف عن بعض أسرار البيان في هذا الحديث الشريف، وكيف بلغت البلاغة النبوية منتهاها، وجاوزت أقصاها، كشفا للفكرة، وإظهارا للعبرة، فجاء البحث تحت عنوان " أقباس من البلاغة النبوية في حديث " سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

وجاءت تلك الدراسة في ثمانية مباحث، تناول كل مبحث عنصرا من عناصر الحديث، فالله أسأل أن يجنبنا الزلل، وأن يمنحنا التوفيق والسداد، ويرزقنا شفاعة نبيه يوم التناد.

المبحث الأول

(كيفية إظلال الله للسبعة المذكورين في الحديث)

ابتدأ النبي صلى الله عليه وسلم الحديث بعبارة مجملة، " سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله"، والإجمال أسلوب مشوق يحرك النفوس، ويستثير منها مكامنها، لترقب بشغف ما يأتي به التفصيل، والأصناف السبعة في الحديث، تفصيل لهذا الإجمال، فتثبت في النفس الفكرة، وتتحقق العبرة.

وقد استعمل النبي صلى الله عليه وسلم في هذه العبارة من الأساليب ما يقوي فكرته، ووظف من ألوان التصوير ما يحقق غايته.

وانظر صيغة العدد التي تصدرت الحديث " سبعة " تجد فيها من معاني التشويق الذي يأخذ النفس أخذا، وهذا التشويق ناجم من أسلوب التوشيع"[١]"

وتزداد النفوس تشوقا، والعقول استشرافا، بما يأتي بعد العدد "يظلهم الله في ظله" وعبارة "في ظله" تأكيد وتقرير لقوله: "يظلهم" فإن "يظلهم" يحتمل أن يراد به ظله سبحانه أو ظل غيره، فجييئ به نفيا لظل الغير"[٢]"

وترتقي النفس في اشتياقها، فتتبعث فيها تساؤلات، ما كيفية هذا الظل؟ وهل لله عز وجل ظل؟ ومتى يستظل هؤلاء السبعة بهذا الظل؟

---

١ – عرف البلاغيون التوشيع بأنه: "وهو أن يؤتى في عجز الكلام بمثنى مفسر باسمين أحدهما معطوف على الآخر" الإيضاح في علوم البلاغة ١٩٩/٣ دار الجيل – بيروت الطبعة: الثالثة . وذكر محقق الكتاب د. محمد عبدالمنعم خفاجي أن التوشيع لا يختص بعجز الكلام وحشوه، بل قد يأتي في اوله، كما في الحديث الذي نحن بصدده.

٢ – شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بالكاشف عن حقائق السنن ٩٣٣/٣ ت: إياد محمد الغوج

د. جميل بني عطا: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم الطبعة: الأولى، ١٤٣٤ هـ – ٢٠١٣م .

تساؤلات تحتاج إلى جواب، ولكن حذار أن تفهم من إضافة الظل إلى الله معنى التجسيم، ولكن أرخ العنان لعقلك ليتلمس ما عساه يتفق مع المعنى المقصود، فلك أن تقول: يظلهم الله في ظل رحمته، أو في ظل كنفه، أو في ظل ستره، أو في ظل عفوه، أو في ظل كرمه، أو في ظل غفرانه، أو في ظل رضاه... إلى آخر تلك الفيوضات اللامتناهية التي يسشرفها الإنسان في هذا اليوم العصيب، فما أسعد الإنسان أن يستظل بهذه المظللات!!!

فتجد التعبير الدقيق المحكم "في ظله" يتناول كل هذه الأمور: ويتسع ليشمل كل هذه الفيوضات، ولو ذكر الحديث واحدة من هذه الأمور لضاق المعنى، وانحصر الفضل في نعمة معينة، وهذا الثراء المعنوي الذي يعكسه التعبير الموجز يعد سمة من سمات البلاغة النبوية.

فالإضافة في "ظله" تفتح كل هاتيك الأبواب، وتجعل العقل يشرئب إلى هذا النعيم المستطاب، حينئذ يجتهد الإنسان ليكون فردا من أفراد الأصناف المذكورة في الحديث.

نعم هناك رواية للبخاري "في ظل عرشه"[1] فهذه الرواية وإن حددت شيئا واحدا، إلا أن المعنى يتسع ليشمل رحمته وستره وعفوه وغفرانه... لأن من استظل بعرش الرحمن، كان أهلا للعفو والغفران، ومستحقا لدخول الجنان"[2] وهذا يسوغ القول بأن قوله: " يظلهم الله في ظله" كناية عن دخول الجنة، ويقوي القول بالكناية، رواية البخاري السابقة " في ظل عرشه" لأن الجنة – كما جاء في الحديث– سقفها عرش الرحمن، والسقف ظل لمن تحته، إذ هؤلاء السبعة في

---

١ – فتح الباري ١٤٤/٢.

٢ – بعد أن ذكرت هذا رجعت إلى شراح الأحاديث فوجدت ابن حجر في شرحه لصحيح البخاري نصّ عليه . فتح الباري١٤٤/٢ ز فسبحان من يجعل الشيء الواحد تتوارد عليه الخواطر.

الجنة يستظلون بظل عرشه، ويرشح القول بالكناية أيضا، قوله تعالى: : "...وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلٗا (٥٧) النساء .

لكن هذا دفعه بعض العلماء، لأن ظل الجنة لم يحدث بعد، والسياق يدل على امتياز أصحاب الخصال المذكورة، وظل الجنة مشترَك لجميع من يدخلها"[١]" وهذا رأي وجيه.

ومنهم من رأى أن الظل كناية أو استعارة عن العطف"[٢]" والقول بالحقيقة أولى، وهو أوسع من القول بالكناية أو المجاز، ثم إن إظلال الله لهؤلاء يستلزم منه عطفه وحنوه عليهم، ورأفته سبحانه وتعالى بهم.

واقتضت البلاغة النبوية أن يذكر الله باسمه الأعظم، الدال على صفات الجلال، زيادة في الرهبة والهيبة " سبعة يظلهم الله" لكن هذه الهيبة وتلك الرهبة مشفوعة بمعاني اللطف والرحمة المنبعثة من كلمة يظلهم، فلفظ الجلالة تهتز منه القلوب فرقا، وترتعد منه النفوس قلقا، لكن كلمة يظلهم تأتي بظلها الدافئ الحاني.

فما أعجب أن تجمع معاني الرغبة والرهبة في تعبير واحد، وهذا نمط عجيب نجده في كلام الله عز وجل، في قوله تعالى: " وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ (١٨) الأنعام، قال أبو موسى:

" تجد في كلمتي "قاهر" و "فوق" ما يخلع القلب، تجد في كلمة عباده فيضا من الرحمة والحب والأمان"[٣]"

---

١ – فتح الباري ١٤٤/٢.

٢ – فيض الباري على صحيح البخاري للكشميهري٢٥٠/٢ دار الكتب العلمية بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م .

٣ – الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية في تراث اهل العلم د. محمد أبوموسى٦٧ مكتبة وهبة١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م .

وعبارة " سبعة يظلهم الله في ظله" تحرك النفس ويجعلها تترقب موعد هذا الإظلال، ، فيأتي القيد بالظرف "يوم لا ظل إلا ظله" بأقوى أسلوب من اساليب القصر، النفي والاستثناء، وهو أسلوب قوي مؤكِّد، يأتي لتحقيق المعاني الفخمة، وهل هناك أفخم من هذا المقام بحيث يعدل عنه أسلوب النفي والاستثناء إلى سواه.

فهذا التعبير يسوق الناس إلى ساحة الله رب العالمين، فما ينفع في هذا اليوم مال عريض، ولا عيش غريض، ولا جاه منصوب، ولا عز في الدنيا مرهوب، فليس للناس في هذا اليوم إلا عفوه وغفرانه، وظله ورضوانه، فيبلغ التشوق في النفس أقصاه، ويثار فيه سؤال، من هؤلاء السبعة، فيأتي الجواب إمام عادل وما عطف عليه، وهذا سر الفصل بين الجملتين .

المبحث الثاني

(إمام عادل)

يأتي أسلوب المعدود ليهدأ النفس من ترقبها "إمام عادل" فما أحلاها من صفة!!! وما أجمله من موصوفّ!!! صفة تسعد بها البشرية، ويستقر بسببها أمر البرية، صفة مستمدة من عدل الله الذي لا يظلم الناس مثقال ذرة، عدل اتصفت به كلمات الله "وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا" عدل قرين للتقوى ودليل عليها "اعدلوا هو اقرب للتقوى" عدل أمر به ذو الجلال والإكرام "إن الله يأمر بالعدل والإحسان..."

ذهب كثير من اهل العلم أن العدل من صفات الله عز وجل، " فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله"

وما أجمل هذا الموصوف!!! "إمام" حين تتحق فيه صفة العدل، فلا تغره قرابة قريب، ولا يستفزه نسب نسيب، ولا تدفعه عصبية، ولا تسوقه قبلية، بل خوف الله له دافع، فيكون ظلا للفقراء والضعفاء، فلا يطمع طامع، ولا يطغى طاغ .

وما أسمى لفظ "إمام" لفظ يعلي من شأن الحكام، ويسمو بمرتبتهم، ويسمق بمنزلتهم، فهو المؤتم به، المقصود في قضاء الحاجات، وتحقيق اللبانات، فالأنظار عليه معقودة، والأبصار إليه مشدودة

فلله درك أيها الحاكم العادل!!! فقد منحك الله منقبة فلا تنسلخ عنها، وألبسك حلة فلا تخلعها.

وانظر صيغة اسم الفاعل "عادل" تراها تزيد العدل ثباتا.

وهناك رواية وردت بالتعريف "الإمام العادل"[1] وهو تعريف يرفع من مكانة الأئمة إذا اتصفوا بتلك الصفة، فاختيار النبي صلى الله عليه وسلم لهذا التعبير فيه تحفيز للحكام إلى إقامة عدل الله في الأرض.

وهناك رواية ذكرها ابن حجر بصيغة المصدر :الإمام العدل" قال : "وهو أبلغ لأنه جعل المسمى نفسه عدلا"[2] وجاء الإمام العادل مقدما في الذكر لعموم النفع به"[3] وهو الذي عليه مدار الأمر، فبه تصلح البلاد، ويسعد العباد.

وهنا شيء مهم يجب أن يلتفت إليه، وهو أن وصف الإمام جاء بصيغة الاسمية "عادل" ووصف الصنف الثالث جاء بالاسمية أيضا، "ورجل قلبه معلق بالمساجد، في حين أن صفات الأصناف الأخرى عدلت عن الاسمية إلى الفعلية، انظر " نشأ في عبادة ربه" "ورجلان تحابا في الله... " ورجل دعته امرأة.." ورجل تصدق بصدقة... " ورجل ذكر الله خاليا..."

فمجيئ الصفة اسما في الصنفين السابقين، دلالة على وجوب تحقق الصفتين فيهما، وثبوتها معهما، بحيث لا تنفك عنهما أبدا، فالوصف بالعدل يجب أن يكون في الإمام قائما لا يزول ولا يحول، ولا يتجدد تجددا يؤذن بانفكاك الصفة عنه، لأن براح تك الصفة مظنّة لتوقع الظلم والجور، لذا كان صيغة الاسمية هنا أبلغ وأدل من الفعلية الدالة على التجدد وعدم الثبات.

هذا الثبات أيضا يجب أن يكون متحققا في التعلق بالمساجد، ليس التعلق الذي يجعل صاحبه في المساجد دائما قائما، تاركا دنياه، وإنما التعلق الذي

---

١ – صحيح مسلم بشرح النووي ١٢١/٧ دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الثانية، ١٣٩٢.

٢ – فتح الباري ١٤٤/٢.

٣ – السابق١٤٥/٢.

يجعله يجعله قائما على الفرائض، فكلما أدى فريضة، خرج من المسجد وقلبه متعلق ومتشوق للفريضة الثانية، وهكذا فالتعلق لا ينفك عنه، بل هو ملازم له.

أما الأصناف الأخرى فالمعنى معها غير ثابت، فنشوء الشاب في العبادة أمر قد يعتريه فتور، ويشوبه قصور، لكن سرعان ما يؤوب، ويستغفر الله ويتوب، فلا يستقيم النظم إذا قيل: "وشاب ناشئ في عبادة ربه"

والمحبة في الله قد تعرض لها عوارض، فتكون حين يوجد ما يدعو إليها من حسن طاعة المرء وإقباله على الله، وتزول حين تزل قدمه، ويزيغ حلمه، فالفعل معها أنسب من الاسم.

ودعوة المرأة الجميلة الرجل لا تكون ثابتة، بل ربما تعرض له في حياته مرة أو مرتين، وقد لا تعرض أصلا، فالفعل أنسب لها من الاسم.

والصدقة لا تأخذ صفة الثبوت، فتكون في حال الوُجْد، ولا تكون عند القُلّ، فالفعل " تصدّق أبلغ من متصدق.

كذلك لا يتلبس الذكر بالإنسان دائما، ولا يكون فيض العين مع الذكر قائما، فالبكاء خشية أو تشوقا، قد يكون سوانح عارضة، وبوارق وامضة، فالبلاغة النبوية عبرت عن كل حالة بما يليق بها، واختارت من التعبيرات ما يدل عليها.

المبحث الثالث

(شاب نشأ في عبادة ربه)

هذا هو الصنف الثاني، ونكِّر لفظ شاب تنكير تقليل"[١]" أو تعظيم"[٢]" ويجوز أن يكون التنكير على أصله من دلالته على العموم والشياع، وهذا هو مراد الحديث، فالمقصود أي شاب تحققت فيه تلك الصفة، وهذا الشيوع مفهوم من جميع الأصناف المذكورة في الحديث.

وآثر الحديث لفظ "شاب" دون رجل، "لأن العباد في الشباب أشد وأشق، لكثرة الدواعي وغلبة الشهوات، وقوة البواعث على اتباع الهوى"[٣]" يضاف إلى ذلك أن النشْأ يناسبه التعبير بالشاب، فلا يستساغ هنا لفظ رجل، يقال: "نَشَأَ يَنْشَأُ نَشْأً ونُشُوءاً ونَشاءً: رَبا وشَبَّ. ونَشَأْتُ فِي بَنِي فُلَانٍ نَشْأً ونُشُوءاً: شَبَبْتُ فِيهِمْ"[٤]" وَالناشِئُ فوَيْقَ المُحْتَلِمِ، وَقِيلَ: هُوَ الحَدَثُ الَّذِي جاوَزَ حَدَّ الصِّغَر"[٥]" وهي مرحلة ما قبل الشباب، فالشاب وإن يطلق عليه رجل، إلا أن التعبير بالشاب هنا أنسب.

وجملة الصفة "نشأ في عبادة ربه" كشفت عن جانبين مهمين، الأول : أن الشاب بمجرد أن عقِل عن الله تعالى، وجرى عليه القلم، تلبّس بالطاعة تلبّسا نفى عنه غوائل المعاصي التي تتسلل إلى نفوس الشباب، فبدأ حياته بالصفاء الفطري.

---

١ – الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية د. كمال عز الدين١٤.

٢ – من بلاغة القيود في الحديث النبوي الشريف د. أحمد محمد محمود سعيد ٣٥٦ مكتبة وهبة ١٤٤٣هـ ٢٠٢٢م

٣ – عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني ١٧٨/٥ دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٤ – لسان العرب مادة "شبب"

٥ – السابق.

دلّ على ذلك الفعل "نشأ" الذي يدل في كثير من اشتقاقاته على الابتداء، جاء في اللغة " النّشَأ ابتداء الخلق، والنّشَأ أول ما ينشأ من السحاب ويرتفع... وأنشأ السحاب يمطر: بدأ، والناشئة أول النهار والليل"[١]

فهذا الاختيار الدقيق دلّ على أن هذا الشاب لم تشُبْه لوثة من بداية أظفاره، ولم تعْتره ما يعتري غيره من صبوة جامحة، وشهوة طامحة تبعده عن ساحة الله رب العالمين.

الثاني: أن هذا الشاب يفَعَ، فوجد في البيت تربة إيمانية خصبة ترعرع فيها، وأكل من ثمارها الزكية، وروّى عروقه بمياهها النقية، فطابت نفسه، ورسخ في العبادة غرسه، والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه، وهذا يومئ إلى دور الأبوين في تهيئة الأبناء تهيئة صالحة.

دلّ على التعبير ب "في" الظرفية، فكأن العبادة صارت ظرفا احتوى على هذا الشاب، كما يحتوي الظرف على المظروف، وهناك رواية في مسلم "شاب نشأ بعبادة الله"[٢] بحرف الباء، والباء تفيد في اللغة الإلصاق والمصاحبة، وهذا يعني أن الشاب نشأ متلبسا بطاعة الله وملتصقا بها، ومصاحبا لها مصاحبة لا يخشى عليه منها فكاك، فهي لا تبرحه ولا يبرحها هذه المعاني العالية كنا نفتقدها لو جاء التعبير ب "شاب أطاع أو يطيع الله".

ودل لفظ الربوبية "في عبادة ربه" على أن عبادة الشاب لم تكن تقليدا حاكى فيها والديه، وإنما كانت عبادته نابعة من عقل مدرك، وقلب فطن إلى أن الله صاحب الآلاء الظاهرة والباطنة، وأنه هو المربي ذو الإحسان المتفضل على

١ – لسان العرب مادة "نشأ"

٢ – صحيح مسلم بشرح النووي ١٢١/٧.

عباده بسابغ نعمه، وأنه الخالق الرازق المدبر لأمور خلقه، المصلح لشؤونهم، ومن ثم فهو يستحق العبادة استحقاقا واجبا

وهناك رواية وردت بلفظ الجلالة" شاب نشأ في عبادة الله"[1] واللفظة أيضا تدل على استحقاق الله بالعبادة، فهو الله الذي يتألّه الخلق في عبادته، ويصمدون إليه في طاعته، ولعل هذا رسخ في ذهن الشاب فكانت عبادته عن اقتناع، لا على تقليد واتباع.

وما ظنّك بشاب ألجم نفسه عن الشهوات، وهي تمور في نفسه مورا، ومنع نفسه عن الصبوات، وهي تفور فيه فورا، وعكف على طاعة ربه، يستظل بظلها من حرارة شهوته، ووقدة صبوته، فكان الجزاء من جنس العمل، بأن ظُلّل من حرارة تغشى الناس في هذا اليوم المرهوب، فظلُّ الطاعة في الدنيا أورثه ظلّ الله في الآخرة، فما أحلاها من مناسبة، وما أجملها من ملاءمة.

هناك روايات أخرى تدل على استمرارية هذا الشاب في الطاعة، لم يقطع هذه الاستمرارية إلا الموت، منها رواية "شاب نشأ في عبادة ربه حتى توفِّي على ذلك" ومنها "أفن شبابه ونشاطه في عبادة الله"[2]

١ – صحيح مسلم بشرح النووي ١٢١/٧.

٢ – عمدة القاري ١٧٨/٥.

المبحث الرابع

(ورجل قلبه معلق بالمساجد)

هذا هو الصنف الرابع من الأصناف التي تستظل يوم القيامة بظل الله، وقد وردت روايات متعددة في التعبير عن هذا الصنف، منها رواية الصحيحين " ورجل قلبه معلّق في المساجد"[١] وهناك زيادة من بعض الرواة "معلق بالمساجد من حبها"[٢] ورواية الموطأ " ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج حتى يعود إليه"[٣] وهناك رواية بحذف القلب " ورجل معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه"[٤]

كل هذه الروايات تدل على شدة ملازمة هذا الرجل للمسجد، وعظم حبه لها، وتعلقه بها.

ذكر ابن حجر أن رواية "معلق في المساجد" فظاهره من التعليق، كأنه شبهه بالشيء المعلق في المسجد، كالقنديل مثلا، إشارة إلى طول الملازمة بقلبه، وإن كان جسده خارجا عنها... ويحتمل أن يكون من العلاقة، وهي شدة الحب..."[٥]

وما ذكره ابن حجر تسوّغة صيغة الحديث الموحية بأن هذا الرجل كأنه خلع قلبه وتركه في المسجد، والقلب به حياته، وخلعه فيه مماته، وهذا يعنى أن هذا الرجل يستشعر بالحياة الحقيقية في بيوت الله، ويستشعر بالموت حين يفارقها، لأنه ترك حياته وروحه وقلبه ونبضه هناك، فلا تطيب له حياة إلا إذا استرد في المسجد قلبه المخلوع.

---

١ – فتح الباري ١٤٥/٢، صحيح مسلم بشرح النووي ١٢١/٧.

٢ – مصنف ابن أبي شيبة ١١٥/٧ ت :كمال يوسف الحوت: مكتبة الرشد – الرياض الطبعة: الأولى، ١٤٠٩.

٣ – شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك ٧٥٧/١ ت: طه عبد الرءوف سعد : مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

٤ – شرح النووي لصحيح مسلم ٧٦/٢.

٥ – فتح الباري ١٤٥/٢ .

والذي دل أيضا على شدة تعلق هذا الرجل بالمسجد النمط العجيب الذي جاءت به الصيغة، اختلفت به عن صيغ الأصناف الأخرى، وتأمل تجد أن أوصاف الأصناف جاءت بالفعل الماضي، "شاب نشأ" "رجل دعته" "ورجل تصدق" ورجلان تحابا" ورجل ذكر الله.." فكان الظاهر أن يقال: "ورجل تعلق قلبه بالمساجد" لكن الحديث عدل عن التعبير بالجملة الفعلية إلى التعبير بالجملة الاسمية" ورجل قلبه معلق بالمسجد" ليدل على ثبوت هذا التعلق ورسوخه في قلب هذا الرجل.

ورواية " ورجل معلق بالمسجد" رواية عجيبة كشفت عن أن تعلق هذا الرجل بالمسجد بلغ المنتهى، فلم يتعلق قلبه، بل تعلق هو بكليته، بشحمه ولحمه ودمه وعقله وفكره وكل شيء فيه، وهذا يكشف عن أنه أُشْرِب حب المساجد، فتخلل هذا الحب مسارب جسمه، ومنافذ بدنه.

وعلى هذا يمكن أن يقال: إن التعبير بالقلب يحمل معنى الحب والمداومة على الصلوات، والمحافظة على الجماعات، وهذا يكون سبيله القلب الذي بصلاحه صلاح الجسد كله، والتعبير بالكل يحمل معنى علو الهمة في تفقد المساجد، وتعهدها ، والقيام عليها بناء وتشييدا وتعميرا وتطهيرا، وهذا أمر لا يقوم به القلب، بل يقوم به الرجل.

فما أسمى هذا التعبير النبوي الذي يحمل هذين المعنيين !!! ، هذا الثراء نجده ينسجم مع قول الله تعالى: " فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) النور.

فالرفع في الآية إما أن يكون رفع مكان أو رفع مكانة، فرفع المكان أشار إليه الطبري بأن تُبْنى"[1]" والبناء من عمل الرجل لا من عمل القلب، وهذا يقابله في التعبير النبوي "ورجل معلق بالمساجد".

١ – تفسير الطبري جامع البيان في تأويل القرآن ١٩٠/١٩ ت: أحمد محمد شاكر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م.

وإما أن يكون رفع مكانة ومنزلة، ويكون المراد تعظيمها، والتعظيم من عمل القلب لا من عمل الرجل، وهذا يقابله التعبير النبوي "ورجل قلبه معلق بالمساجد.

أقول لا عجب البتة في هذا الانسجام الرائع، الذي يدل على تأثر النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن واحتذائه معانيه.

وصياغة العوْد التي جاءت في بعض الروايات " إذا خرج حتى يعود إليه" تدل على كثرة الترداد والمعاودة للمساجد، إذ في العود رجوع إلى سابق العهد، قالت العرب: "عادت لعِتْرِها لميس" أي عادت إلى أصلها"[١]" وهو يضرب لمن يرجع إلى خلق كان قد تركه"[٢]" ولا يفهم أن ترك الرجل للمسجد كان ترك مفارقة وهجران، بل ترك مؤقت بين الصلوات لتدبير معيشته، وتعهد حالته، ثم سرعان ما يعود، كما قالت العرب: "عاد في حافرته، أي عاد إلى طريقته الأولى"[٣]" "وعاد إلى عِكْرِه" أي أصله"[٤]"

فالحديث بصياغاته وعباراته وكلماته، وتعدد رواياته، يدل على شدة حب هذا الرجل لبيوت الله، ومدى تعلقه بها تعلقا يحيي به روحه وقلبه وحياته، وهكذا يجب أن تكون المساجد في عقل كل مسلم وقلبه وروحه.

١ – مجمع الأمثال للميداني ٢٣/٢ المحقق: محمد محيى الدين عبد الحميد : دار المعرفة – بيروت، لبنان.

٢ – جمهر الأمثال لأبي هلال العسكري ٤٩/٢ دار الفكر بيروت .

٣ – مجمع الأمثال ٢٧/٢.

٤ – نفسه.

المبحث الخامس

(ورجلٌ دعتْه امرأةٌ ذاتُ منصب وجمال فقال إني أخافُ الله)

فما أدق اختيار كلمات هذا الصنف، وانظر كلمة "رجل" إذ كان من الجائز أن يأتي التعبير بلفظ "امرؤ" ليناسب التعبير بلفظ "امرأة" في قوله: "دعته امرأة" لكن سمو البلاغة النبوية عدلت عن هذا، واختارت صفة يُمتدح بها الرجل امتداحا، لا لكونه رجلا يمتاز عن الأنثى بذكورته، إذ لو كان هذا موضع مدح لجاز للأنثى أن تمتدح بأنوثتها، وإنما المدح والتفخيم لرجل توفرت فيه سمات الرجولة، من شهامة ونخوة، وعفة وإباء، تعقله عن ارتكاب أمور تخلّ برجولته، وتقدح في عفته.

ولعل الوصف بالرجولة يكشف أيضا عن هذا الرجل عنده من الرجولة والفحولة ما يدعوه إلى أن يصبو إلى تلك الداعية، لكنه ألجم فحولته، وكبت صبوته خوفا من الله عز وجل، فالوصف يتسع ليشمل هذين المعنيين.

والفعل "دعته" فيه من الدلالات التي تعكس عفة هذا الشاب، فيه من التدلّه والرغبة من المرأة ما يجعل الشاب يقع في شراكها، لكن عفّ واستعفّ، " ومن يستعففْ يعفَّه الله" فاقتضت البلاغة النبوية العالية اختيار الفعل "دعتْ" دون "طلبت" فالدعاء يمتاز عن الطلب بمعان منها:

- الحث على الطلب كما في موقف نسوة مصر مع يوسف "قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ... يوسف ٣٣ والدعوة منهن كان فيها تبذّل وإصرار، وتبرج وإسفار.
- الرجاء في تحقيق الطلب، كما في دعوة الشهداء "... وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) البقرة والرجاء هنا ممزوج باستغاثة، أي ارجوا واستغيثوا بمن تتوقعون منهم إعانتكم.

- الميل إلى المطلوب، جاء في مقاييس اللغة "دعوتُ الشيء أدعوه دعاء، وهو أن تميل الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك"[١]
- الصياح والاستدعاء، جاء في اللسان "دعوت فلانا: أي صحت به واستدعيته"[٢]
- الحب والرغبة، وهما من دلالات الدعاء أيضا، كما في اللسان وغيره.

فكل هذه المعاني نطق بها الفعل "دعته" ففيه حث وإصرار، ورجاء وميل وتدلّه، وصياح واستدعاء، وحب ورغبة، فكانت هذه المعاني مجموعة في المرأة الجميلة ذات المنصب والجمال، هذا موقف تطير فيه العقول شَعاعا، ويضل فيه عقل الحليم، إلا أن هذا الرجل – مع تلك المغريات – كان خوف الله له مانع.

وهناك رواية في صحيح البخاري بلفظ "طلبته"[٣] والطلب وإن لم تتوفر فيه معاني الدعوة، إلا أن فيه أيضا معنى الترقب والحرص، قال الراغب: " الطَّلَبُ: الفحص عن وجود الشيء، عينا كان أو معنى"[٤]

وتنكير لفظي "رجل" و "امرأة" بقصد التعميم، أي رجل كان، وأي امرأة كانت، في أي زمن من الأزمنة، فما أشبه هذا الرجل بيوسف عليه السلام عفة وخوفا، وما أشبه تلك المرآة بزليخاء تدلّها وشغفا.

وما زال الحديث بكلماته الدقيقة يشيد بعفة هذا الرجل، وتأمل أوصاف المرأة، "ذات منصب وجمال" دافعان قويان، كفيلان بسلب الحكيم حكمته وعفته، دافع خارجي متمثل في الوجاهة والمنصب، والمنصب والجاه حريّان بسوق الرجل

---

١ – مادة "دعا"

٢ – مادة "دعا"

٣ – عمدة القاري ١٧٦/٥.

٤ – المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني مادة "طلب" دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٢ هـ

إلى المرأة طوعا أو كرها، ودافع ذاتي داخلي متمثل في الجمال الخلاب، والسحر الجذاب، وهذا وحده قمين بجذب الرجل جذبا، ومع كل هذه المغريات، منع الرجل خوفه من الله عز وجل.

وقدم الحديث المنصب على الجمال، لقوة سلطانه، فهو من الجمال أقهر، وإن كان الجمال منه أبهر "فالمرأة ذات المنصب القاهر، قد تضر الشاب إذا استعصم، وليست ذات الجمال المجردة من السلطان بقادرة على فعل شيء"[١]

وفي الفعل "دعته" قيد محذوف، والتقدير دعته إلى الزنا"[٢]" وذكر بعضهم أنه يحتمل أن تكون دعته إلى التزوج بها، فخاف أن ينشغل بها عن العبادة، وألا يقوم بحقها، إلا أن التقدير الأول أظهر، وذكر النووي أنه هو الصواب"[٣]"

فعلى مراعاة المعنى الأول تكون البلاغة النبوية اقتضت حذف هذا القيد مراعاة لمقام التحصن، ورغبة في الحشمة، وابتعادا عما يستقبح ذكره"[٤]"

وكان للفاء في قوله : "فقال إني أخاف الله" دلالة عالية، وهي أن هذا الرجل لم يهتز في هذا الموقف العصيب، ولم يتأرجح في هذا الاختبار الرهيب، فلم يترك لنفسه فرصة تراوده وتعاوده، بل أغلق عليها الأبواب، وقطع عنها كل الأسباب، فالفورية الملحوظة في حرف الفاء لا يدل عليها حرف آخر، ناهيك عن التأكيد النابع من نفس مليئة بالخوف والمراقبة، وأن الرجل كان عنده من اليقين، ما يساعده على هذا التأكيد.

---

١ – من بلاغة القيود في الحديث النبوي الشريف٣٦١.

٢ – مصابيح السنة للبغوي ٤٢٤/١ ت: مجموعة من الاساتذة – دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م

٣ – شرح صحيح مسلم ١٢٢/٧.

٤ – من بلاغة القيود في الحديث النبوي الشريف ٣٦٢.

المبحث السادس

(ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه)

هذا خامس الأصناف التي جاءت في الحديث، والمعنى–كما ذكر الإمام النووي– "اجْتَمَعَا عَلَى حُبِّ اللَّهِ وَافْتَرَقَا عَلَى حُبِّ اللَّهِ أَيْ كَانَ سَبَبُ اجْتِمَاعِهِمَا حُبَّ اللَّهِ وَاسْتَمَرَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى تَفَرَّقَا مِنْ مَجْلِسِهِمَا وَهُمَا صَادِقَانِ فِي حُبِّ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ لِلَّهِ تَعَالَى حَالَ اجْتِمَاعِهِمَا وَافْتِرَاقِهِمَا"[١]"

فالاجتماع والتفرق كما هو واضح في كلام النووي يكون في المجلس، ويجوز أن يكون التفريق بينهما يكون بالموت"[٢]"

وتأمل تجد التعبير في غاية الإيجاز، فكان من الجائز أن يقال: "ورجلان أحب أحدهما الآخر، واجتمع كل منهما على هذا الحب، وتفرق كل منهما عليه..." بهذا التطويل المخل، والسرد المملول، لكن التعبير النبوي جاء في غاية الإحكام، ومتانة النظام.

والحديث وصف هذين الرجلين بثلاثة أوصاف، الأول: التحابب "تحابّا في الله" والأصل تحاببا، أدغم أحد الحرفين في الآخر تركيزا وتخفيفا، وهذا الوصف مقيد بكونه في الله، وهذا القيد مهم جدا هنا، فهو يكشف عن أن هذا الحب كان خالصا لوجه الله تعالى، وليس فيه أدنى شائبة من شوائب الدنيا، وأن كلا من الرجلين لم يكن له أرب في منفعة شخصية، أو منفعة ذاتية.

الثاني: الاجتماع على هذا الحب "اجتمعا عليه" والحب إذا كان بعيدا عن أغراض الدنيا يكون ادوم، والضمير في "عليه" يعود إلى الحب في الله، وفي

---

١ – شرح صحيح مسلم ١٢١/٧.

٢ – فتح الباري لابن رجب الحنبلي ٤٨/٦ ت– مجموعة من الأساتذة مكتب تحقيق دار الحرمين – القاهرة الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م.

العبارة إيجاز بالحذف، والتقدير اجتمعا عليه بقلوبهما، لأن القلوب هي مناط الحب، فالاجتماع على هذا يكون بالأرواح لا بالأشباح

وهناك رواية أخرى حلّ فيها اسم إشارة محل الضمير، و"اجتمعا على ذلك" أي على الحب في الله"[1]"

وفي الإشارة إليه تحديد وتركيز شديد، وتمييز أكيد، وفي الإشارة إليه بالبعيد إعلاء من منزلته، وتعظيم لمكانته.

وإيثار الحديث لفظة الاجتماع دلالة على الرغبة الجارفة، والحب الطافح المتبادل من الطرفين، لأن الإنسان لا يجتمع على شيء إلا إذا كان له راغب، وله طالب، فالاجتماع حب ورغبة، وضم وقربة، فالجمع "ضم الشيء بتقريب بعضه من بعض"[2]"

الثالث "التفرق على هذا الحب" "وتفرقا عليه" أي ظل كل واحد منهما محافظا على هذا الحب، ثم فُرِّق بينهما تشييعا بالموت أو توديعا بالسفر، والضمير في "عليه" يعود إلى الحب أيضا.

ونظم العبارة مترابط الأجزاء، متسلسل الأفكار، كل تعبير مبني على الآخر، فالرجلان تحابّا، انبنى عليه اجتماع مأنوس، وترابط محسوس، ثم أعقب هذا الاجتماع – خضوعا للسنن الكونية– ترك وافتراق.

١ – فيض الباري للكشميري الهندي ٣٧٣/٢.

٢ – المفردات للراغب مادة "جمع"

المبحث السابع

(ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه)

وفي رواية "حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله" قال أحد الشراح، وهو قلب من الراوي قطعا"[١]" وذكر النووي أن الصحيح المعروف حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ثم ذكر أن هذه رواية الموطأ، والبخاري في صحيحه، وغيرهما من الأئمة، وهو وجه الكلام، لأن المعروف في النفقة فعلها باليمين"[٢]"

وقال بعضهم: إن هذا وهم وقع فيه الناقلون عن مسلم، وعلى فرض صحة هذه الرواية، وعدم القول بوهميتها، فإنه من الجائز أن تكون الشمال هي المتصدقة، وهذا فيه تأكيد على العطاء ذاته بغض النظر عن الجارحة المعطية، يمينا كانت أم شمالا، فالمهم أن تقع الصدقة وتتحقق، فيكون التصدق بالشمال فيه انسيابية في العطاء، وأريحية في الجود والسخاء، وأن هذا المتصدق يعطي بكلتا يدية، كما قال القائل"[٣]":

تـراه دائما جـزْل العطـايا يعطـي بالـيمين وبالشـمال

وذكر اليمين والشمال مبالغة في الإخفاء والاستتار بالصدقة، وضرب المثل بهما لقرب اليمين من الشمال وملازمتها لها، ومعناه لو قدّرتَ الشمال رجلا متيقظا، لما علم صدقة اليمين، لمبالغته في الإخفاء"[٤]"

---

١ – فيض الباري ١٠٢/٣ .

٢ – شرح النووي لصحيح مسلم ١٢٢/٧.

٣ – البيت من قصيدة مدح للباحث يصف فيها جود د . أحمد سعيد

٤ – شرح النووي لصحيح مسلم ١٢٢/٧.

ونقل عن بعضهم "أن المراد من عن يمينه وشماله من الناس"[1]" والصواب هو الأول، وقيل المراد بشماله نفسه، أي أن نفسه لا تعلم ما تنفق يمينه، وهو من باب تسمية الكل بالجزء"[2]"

وهذا رأي وجيه، لأنه يضفي معنى المبالغة في الإخفاء، بحيث "لو أمكن أن يخفي صدقته عن نفسه لفعل، فكيف لا يخفيها عن غيره؟ والإخفاء عن النفس تغافل المتصدق عن الصدقة وتناسيها، حتى ينساها، وهذا ممدوح الكرم طبعا وشرعا"[3]"

١ – شرح النووي لصحيح مسلم ١٢٢/٧.

٢ – إرشاد الشاري للقسطلاني ٣٢/٢ المطبعة الكبرى الأميرية، مصر الطبعة: السابعة، ١٣٢٣ هـ.

٣ – إرشاد الساري ٢٢/٣.

المطلب الثامن

(ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه)

هذا آخر أصناف الحديث، وقد جاء في تركيب مترع بخصائص جمالية عالية، منها: سمة الإيجاز، وهو إيجاز بالحذف، أدى إلى تماسك التعبير، فالحديث لم يذكر أنواع الذكر التي انفعل بها القلب، وجرى بها اللسان، فمن الجائز أن يكون هذا الرجل ذكر الله بصفات الهيبة والجلال، ففاض دمعه خوفا ورهبة، أو يكون قد ذكر الله بصفات اللطف والجمال، ففاض دمعه رغبة وشوقا إلى لقائه سبحانه

فالمسكوت عنه هنا اقتضته البلاغة النبوية ثراء للمعنى، وغزارة للدلالة، إلا أن هناك رواية تؤيد المعنى الأول، وهي "ففاضت عينه من خشية الله"[١]"

ومن مظاهر الإيجاز أيضا أن الحديث سكت عن آلة الذكر، واكتفى بالتعبير بالفعل الماضي "ذكر الله" فقد يراد به الذكر المعروف، ويكون آلته اللسان، بعد أن مار به الجنان

وقد يراد به التذكّر والتفكر، ويكون آلته القلب، واستبعد الإمام العيني المعنى الثاني، لأن الذكر بالقلب من الذُّكْر بضم الذال، وباللسان من الذِّكر بكسر الذال"[٢]" إلا أن هذا الفرق لم يقل به الراغب، فعنده الذِّكر ذكران: ذكر باللسان وذكر بالقلب"[٣]" لكن قال بالفرق أصحاب المعاجم"[٤]" وذكر الأزهري احتمال القول بعدم الفرق، "فالذِّكر والذُّكْر لهجتان"[٥]"

---

١ – عمدة القارئ للعيني ١٧٩/٥

٢ – نفسه

٣ – المفردات مادة "ذكر"

٤ – راجع تهذيب اللغة وتاج العروس مادة "ذكر"

٥ – تهذيب اللغة مادة "ذكر"

ومن سمات الإيجاز أيضا ما عكسه الحال "خاليا" فيجوز أن يكون المراد خاليا من الخلق، لأنه حينئذ يكون أبعد عن الرياء، وقيل خاليا من الالتفات إلى غيره تعالى"[1]"

وعطف الفعل "ففاضت" على الفعل "ذكر" بحرف الفاء الدال على الفورية، إشارة إلى أنه ليس هناك مهلة أو فترة تراخ بين الذكر وفيضان العين بالدمع، وهذا يكشف عن سرعة التأثر، وشدة الانفعال، وقوة الإحساس بجلال المشهد وجماله.

وفي التعبير ب "فاضت عيناه" مجاز عقلي علاقته المكانية، فالعين مكان الدموع، والمراد فاض دمعه، لكن النبي صلى الله عليه وسلم عبّر بالعين بدل الدمع " مبالغة كأنها هي الفائضة"[2]" أو بتعبير القسطلاني "صار دمعا فياضا"[3]"

والتعبير بالفيض بدل السيلان دلالة على كثرة البكاء وغزارة الدموع، كما أن التعبير بالمثنى "عيناه" مع أن المفرد يغني غناءه تأكيد على التأثر الشديد والإحساس القوي بجلال الله سبحانه، وجمال صفاته فالعينان تفيضان لا عين واحدة، وجائز في لغة العرب أن العين تقوم مقام العينين، كما أن اليد تقوم مقام اليدين وهكذا.

١ – عمدة القاري ١٧٩/٥.

٢ – عمدة القارئ ١٧٩/٥.

٣ – إرشاد الساري ٢٥/٣.

الخاتمة

الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصلاة السلام على سيدنا محمد وعلى آله ومن تبعه بإحسان، وبعد.

فمن خلال تلك السياحة المباركة في حديث "سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، استطعت أن أقف على ما يلي:

- العدد سبعة في الحديث لا مفهوم له، فلا يراد منه قيمته العددية المعروفة، لأن هناك روايات متعددة ذكرت أصنافا كثيرة يمنحون هذا الإظلال، وقد تتبع العلماء تلك الروايات، فوجدوا أنها ذكرت ما يزيد على سبعين صنفا، وهذا يكشف عن سعة فضل الله سبحانه وتعالى وسابغ رحمته.
- التعبير بالرجل في الحديث لا يقصد منه حصر الإظلال على الرجال دون النساء، وإنما ورد الحديث بأسلوب التغليب، فالحديث يتناول النساء أيضا فيما يجوز لهن شرعا الدخول فيه.، وإن كان بعضهم جوّز الإمامة للمرأة إذا كانت ذات عيال فتعدل بينهم، أما المسجد فصلاة المرأة في بيتها أفضل من الصلاة في المسجد.
- في هذا الحديث وفي غيره من الروايات الأخرى إغراء للنفوس، وتحفيز للهمم نحو المنافسة في مجال الطاعات، والمسابقة إلى فعل القربات، حتى يحظى الإنسان بهذا الظل العميم، والفضل المقيم، وهل هناك ما هو أعظم إغراء، وأقوى تحفيزا من أن يتولى الله إظلال هؤلاء السبعة بنفسه.
- الترتيب الذي جاء عليه هذا الحديث في تعداد الاصناف ليس ترتيبا ثابتا، فهناك روايات جاءت بترتيبات أخرى مغايرة للترتيب الذي نحن بصدده، وإن كنت أرى أن الترتيب الذي اعتمده هذا البحث من رواية الشيخين هو ترتيب منطقي، تساوقت فيه المعاني، بحيث يبدو للمتأمل أن كل صنف وضع موضعه اللائق به، فالبدء بالإمام العادل، لأنه هو الأصل الذي تصلح به البلاد، وعليه مدار الفلاح والإسعاد، وصدق ذو الرمة في قوله:

لا ذي تخافُ ولا لهذا جُرأة تُهْدَى الرَّعيةُ ما استقام الرّيِّسُ

- ثم ثنّى الحديث بعد ذلك بسواعد المجتمع التي يقوم عليها، وهم الشباب " وشاب نشأ في عبادة ربه"
- ثم ثلّث الحديث بمكان تلك العبادة، وهي المساجد " ورجل قلبه معلق بالمساجد، ولا شك في أن المساجد مكان الاجتماع والألفة، فيأتي الصنف الرابع ثمرة طبعية لهذا المكان "ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه"
- ولا غرو في أن شابا نشأ في عبادة ربه، وتعلق قلبه بالمساجد، وأحب في الله، لاشك في أنه يتدثر بدثار العفة، ويستحضر جلال الله وعظمته حين تعرض له الفتن، فيأتي الصنف الخامس ترتيبا منطقيا "ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقل إني أخاف الله.
- ولا شك في أن من اتصف بتلك الصفات الماضية، تكون الدنيا أهون عليه من أن يتعلق بها قلبه، فيبذل المال ابتغاء مرضات الله، فيجيئ الصنف السادس "ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه.
- بعد هاتيك الصفات تصل التزكية منتهاها في قلب الإنسان، فيكون ذكر الله حالّا في الجنان واللسان، ويكون التفكر في عظمه الله سبحانه ديدنه وهجّيراه، فيبكي خوفا من عقابه، أو شوقا إلى ثوابه.
- الأوصاف السبعة التي ذكرها الحديث كفيلة بأن تكون دعائم لمجتمع رباني محفوف بالسكينة والاطمئنان، مجتمع لا تحركه الزعازع، ولا تزعزعه المطامع، مجتمع خال من نزغات الهوى ومطامع النفوس.
- فعدل الإمام مقاومة للظلم الذي هو من شيم النفوس الطامحة، وعبادة الشاب وائدة لصبوات الهوى الطافحة، والمساجد تزكية للفؤاد، وأجلب للمحبة والتواد، والعفة كابتة لشهوات الفروج، التي تكدر صفاء الأعراض، وتجلب الهموم

والأمراض، والصدقة حرب على كزازة النفوس، وذكر الله في الخلوات عروج إلى أعلى الدرجات.

- لما كان الحديث بهذه الخطورة، وتلك الأهمية، أودع فيه النبي صلى الله عليه وسلم، من بلاغة نفسه، ورهافة حسه، حتى يأخذ بمجامع القلوب، فيبعث فيها الإثارة، نحو هذه الأبواب، لتكون أهلا لإظلال الله يوم الحساب، فاستعمل النبي صلى الله عليه وسلم من خصائص التركيب، وألوان التصوير، ما يحقق تلك الغاية المقصودة، والثمرة المنشودة.
- فاستعمل اسلوب التشويق، وهو بإثارة النفوس حقيق، في قوله: "سبعة يظلهم الله في ظله...، والتشويق ناجم عن أسلوب التفصيل بعد الإجمال، واستعمل صلى الله عليه وسلم المجاز، وهو أدخل في البلاغة والإعجاز في قوله: "ورجل قلبه معلق بالمساجد، وقوله: "ففاضت عيناه".
- واختار صلى الله عليه وسلم من الألفاظ أثراها معنى، وأغزرها دلالة، وأقصدها غرضا، وأحسنها مؤدًى، وانظر في الحديث "نشأ" "دعته" "ذات منصب وجمال" "خاليا".
- ووظف النبي صلى الله عليه وسلم من أساليب التوكيد ما يحقق الفكرة، ويظهر العبرة، فلجأ إلى أسلوب القصر في "لا ظل إلا ظله".
- الإيجاز سمة عامة في الحديث، أدى على إحكام العبارة، ودقة الإشارة، والإيجاز – كما ذكر الزيات– قوة في التعبير، وامتلاء في اللفظ، وشدة في التماسك"[١]"
- استعمل النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا من القيود كشفا عن المقصود، ومعلوم أن القيود في البلاغة العربية، ليست فضلة يُذَيّل بها الكلام، ويُحْشَى

١ – وحي الرسالة ١٩/٣.

بها النظام، بل هي ركن ركين في أداء المعنى، فلا يتم المعنى إلا بها، ولا ينكشف المعنى إلا من خلالها، وقد كشف أحد الباحثين عن هذه القيود، فذكر – وهو محق– أن القيد بالصفة ورد تسع مرات، وتعدد القيد بالحال مرة واحدة، وورد بالشرط مرة واحدة في إحدى روايات الحديث"[١]"، وقد كشف التحليل عن هذه القيود.

- آثر الحديث واو العطف بين تلك الأصناف للدلالة على استقلالية كل صفة، وأن كل صفة قائمة بنفسها، وأن وجود صفة واحدة من تلك الصفات يضمن لصاحبها تلك المنزلة، ولو أسقطت الواو لتوهم اجتماع هذه الصفات في الشخص شرط التظلل بظل العرش..."[٢]"

١ – من بلاغة القيود في الحديث النبوي الشريف٣٥٤.

٢ – السابق ٣٦٦.

مراجع البحث

١ – إرشـــاد الســـاري – المطبعـــة الكبـــرى الأميريـــة، مصـــر الطبعـــة: السابعة،١٣٢٣هـ

٢– البيان والتبيين للجاحظ دار ومكتبة الهلال، بيروت : ١٤٢٣ هـ

٣ – إعجـاز القـرآن والبلاغـة النبويـة للرافعـي – دار الكتـاب العربـي– بيـروت ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

٤ – الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية في تراث اهل العلم د. محمد أبو موسى – مكتبة وهبة١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م

٥– الإيضاح في علوم البلاغة. محمد عبد المنعم خفاجي : دار الجيل – بيروت الطبعة: الثالثة

٦– تاج العروس مجموعة من المحققين : دار الهداية

٧– – تفسير الطبري جامع البيان في تأويل القرآن أحمد محمد شاكر : مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م

٨– تهـذيب اللغـة للأزهـري– ت– محمـد عـوض مرعـب : دار إحيـاء التـراث العربي – بيروت

الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م

٩– جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري – دار الفكر – بيروت.

١٠– الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية د. كمال عز الدين.

١١–شرح النووي علـى صـحيح مسلم– دار إحيـاء التـراث العربـي – بيـروت – الطبعة: الثانية، ١٣٩٢

١٢– شرح الطيبـي علـى مشكاة المصـابيح المسمى بالكاشـف عن حقائق السـنن مكتبة نزار مصطفى الباز – الرياض الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ– ١٩٩٧م

١٣– عمـدة القـاري شـرح صـحيح البخـاري للعينـي دار إحيـاء التـراث العربـي – بيروت.

١٤- فتح الباري شرح صحيح البخاري دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩ ت: محمد فؤاد عبد الباقي

١٥- فتح الباري لابن رجب الحنبلي – ت- مجموعة من العلماء – مكتب تحقيق دار الحرمين – القاهرة الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

١٦- فيض الباري على صحيح البخاري للكشميري ت- محمد بدر عالم الميرتهي الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان – الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

١٧- لسان العرب دار صادر – بيروت – الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ

١٨ – مجمع الأمثال للميداني محمد محيى الدين عبد الحميد : دار المعرفة – بيروت، لبنان

١٩- مصابيح السنة للبغوي –ت- مجموعة من العلماء- : دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان – الطبعة: الأولى، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م

٢٠- مصنف ابن أبي شيبة –ت-كمال يوسف الحوت : مكتبة الرشد – الرياض الطبعة: الأولى، ١٤٠٩

٢١ – المفردات في غريب القرآن- دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت – الطبعة: الأولى – ١٤١٢هـ

٢٢- من بلاغة القيود في الحديث النبوي الشريف د. أحمد محمد محمود سعيد مكتبة وهبة – ط١ ١٤٤٤هـ-٢٠٢٢م

٢٣ – وحي الرسالة أحمد حسن الزيات دار الثقافة بيروت الطبعة العاشرة١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١١٢٨
المطلب الأول : (كيفية إظلال الله للسبعة المذكورين في الحديث)	١١٣٢
المطلب الثاني : (إمام عادل)	١١٣٦
المطلب الثالث: (شاب نشأ في عبادة ربه)	١١٣٩
المطلب الرابع : (ورجل قلبه معلق بالمساجد)	١١٤٢
المطلب الخامس :(ورجلٌ دعتْه امرأةٌ ذاتُ منصب وجمال فقال إني أخافُ الله)	١١٤٥
المطلب السادس : (ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه)	١١٤٨
المطلب السابع :(ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه)	١١٥٠
المطلب الثامن : (ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه)	١١٥٢
الخاتمة	١١٥٤
فهرس المراجع	١١٥٨
فهرس الموضوعات	١١٦٠